الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

سوسيولوجية اللغة لدى الجاحظ- البيان والتبيين أنموذجا-

The Sociological Aspect of Language according to Al jahidh 'Al Bayan Wa Ettabyine' as a Model

د. أحمد مداني
أستاذ محاضر . قسم الأدب العربي
كلية الآداب والفنون جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف- (الجزائر)
madaniprof@hotmail.fr

ملخص

هذا البحث يدخل ضمن دراسة فرع من فروع اللسانيات وهو سوسيولجية اللغة ، أوما اصطلح عليه باللسانيات الاجتماعية أوعلم الاجتماع اللغوي، وباستقراء ماجاء في كتاب " البيان والتبيـــــين "، نجد الجاحظ درس ظواهر اللغة كاللهجات بأنواعها، واللكنات الجارية على ألسنة الأفراد في المجتمع، وعلاقة الفصحى باللهجات، والتفاوت الاجتماعي، وعلاقته باللغة، مما يؤكد أن تفكيره اللساني كان يحمل البذور الأولى للدراسات السوسيولسانية، وأن كتبه مشحونة بمسائل لسانية كثيرة ومختلفة، كلها تهتم بالتحليل العلمي والموضوعي للسان البشري، كما أن تحليلاته اللغوية أقلت نظريات مشحونة بمادة علمية لغوية غنية، تشترك مع تلك التي توصل إليها المتخصصون في اللسانيات الاجتماعية الحديثة.

الكلمات الدالة : اللسانيات، اللسانيات الاجتماعية، علم الاجتماع اللغوي، البيان والتبيين، سوسيولسانية، اللسان البشري، اللهجات.

Abstract

The present research aims at studying the sociological aspect of language which is considered as a branch of linguistics known as sociolinguistics. So, in his book entitled "Albayan wa Ettabyine", the author EL Djahidh discusses the subject of linguistic phenomena such as the different kinds of dialects, the various accents used by individuals in the community, the relationship between the classical Arabic and dialects, and the social disparity and its relation with language. This emphasizes clearly that his linguistic thinking paved the way towards many sociolinguistic studies. His books also dealt with diverse linguistic issues; all of which refer to the scientific and objective analysis of the human language. Furthermore, the linguistic analysis of EL Djahidh actually brought significant scientific theories which share plenty of linguistic matters with those which have recently been reached by specialists in the modern sociolinguistics.

Keywords: *Linguistics, Sociolinguistics, Modern Sociolinguistics, Linguistic Analysis, Human Language, Dialects.*

مقدمة

تميز الجاحظ (255/159هـ) بعبقرية استطاع بها أن يكتب في علوم شتى، لاسيما اللغوية منها، حتى وصف بأنه " نسيج وحده في جميع العلوم، علم الكلام والأخبار والفتيا والعربية وتأويل القرآن وأيام العرب، مع ما فيه من الفصاحة "[1]، هذه المعرفة الموسوعية، أدت بالجاحظ إلى أن ينقل معارفه اللسانية من حيز التنظير إلى نطاق التطبيق، المتمثل في رصد الظواهر اللغوية ضمن الواقع الاجتماعي، منطلقا من الحقيقة اللسانية، وهي اجتماعية اللغة التي قال بها اللسانيون المحدثون، أمثال فرديناند دوسوسير (1973/1857) (F .De Saussure)،وغيره، وصار ماتوصلوا إليه وتوصل إليه، كأنه يخرج من مشكاة واحدة، وهكذا توجه الجاحظ إلى الدراسة العلمية في استقراء اللغات الرسمية واللهجات المحلية، إذ لم يقتصرعلى دراسة لغة واحدة، بل تجاوزها إلى دراسة لغات أخرى في إطارها الاجتماعي، ويظهر ذلك باقتحامه مجال المقارنـــة ،

بين اللسان العربي وغيره من الألسنة التي تعلمها واحتك بها في عصره، فقد كان عليما باللسان الفارسي، يظهر ذلك في ترجمته لعبارات فارسية إلى العربية في كتاب "البخلاء"، كما أنه كان ذا معرفة بلغة اليونان عن طريق الترجمة، وبعلومهم التي نبغوا فيها، ومن هذه العلوم علم المنطق الذي تبين له أن أرسطو(Aristote)(322/384 ق.م) كان متفوقا فيه، حتى لقبه بصاحب المنطق، وذلك في أبواب كثيرة من كتاب الحيوان، إضافة إلى أنه اطلع على لهجات الأجناس الأخرى، كاللغة الحبشية ولغة السند والنبط وغيرها من اللغات، ومن هنا يتبين أن منهجه مقارب لمنهج اللسانيات الحديثة التي تدرس جميع اللغات واللهجات ، متوخية ما كان مشتركا بينها من الخصائص اللسانية، لذا فإن الباحث لا يجد مفهوم علم اللغة لدى الجاحظ ، يختلف كثيرا عن تعريف "أندري مارتيني" (1999/1908) (André Martinet) للسانيات بأنها " الدراسة العلمية والموضوعية للسان البشري"[2]، أوما أشار إليه جون دي بوا (2015/1920) (Jean Dubois) بقوله إنها: "العلم الذي يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية، تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع ، بعيدا عن النزعة التعليمية والأحكام المعيارية" [3].

إن منهج الجاحظ العلمي في دراسة اللغة، دفعه إلى أن يسلك مسلك قانون التدرج الذي بدأه ياستنطاق لغة النص القرآني، باعتبارها المثل الأعلى للبيان العالي، ثم يتنزل من هذا الخطاب المثالي إلى أنواع الخطاب البشري الجاري على ألسنة المتكلمين في المجتمع، مستندا في دراسته إلى تأثيرات البيئة والظروف الاجتماعية في اختلاف الألسنة وتغيرها، وقد جعل من كتابه "البيان والتبيين" مصدرا لهذه الدراسة الاجتماعية للغة، إذ ركز على الحدث الكلامي، باعتباره أداء لايرتكز على الجانب النظري فقط، بل على جانب الممارسة الفعلية للغة داخل المجتمع، "طبقا لقانون عام، وهو لكل مقام مقال، فيما خلا بعض الآراء النظرية التي تدور حول مفهوم اللغة، والكلام والبيان والبلاغة" [4].

استنادا إلى ما سبق من توضيح لمنهج الجاحظ ، ومنظوره اللساني للغة، خاصة الجانب الذي يشمل دراستها في الإطار الاجتماعي، فإن هذا البحث، يسعى إلى أن يرصد منهجية الجاحظ في تحليل الظواهر اللغوية و اللهجية، ضمن إطار اللسانيات الاجتماعية، وقد طرحت من أجل ذلك ، الإشكال الآتي:

- ماهي الأسس النظرية والتطبيقية التي تمظهرت فيها النظرية اللسانية الاجتماعية، في تفسير اللغة عند الجاحظ؟

في هذا السياق، سيعالج هذا البحث العناصر الآتية:

1- المنظور الاجتماعي للغة عند الجاحظ.

2- اللسانيات الاجتماعية وميادينها التطبيقية في فكر الجاحظ.

3- اللهجات وعلاقتها بلغة المجتمع.

1 ـ المنظور الاجتماعي للغة عند الجاحظ

لاريب أن ما لايختلف فيه باحثان، هوأن معظم الدراسات التحليلية للغة قديما وحديثا، انطلقت من إشكال تمظهر في الاستفهام الآتي:

ماهي اللغة؟

انطلاقا من هذا الطرح، فإن الباحث يجد نفسه أمام أعداد كثيرة من البحوث اللسانية ، كل منها يهتم بتعريف اللغة، ويحاول معرفة الخصائص اللغوية التي تختص بها اللغات الإنسانية، وقبل الحديث عن المنظور اللساني للغة عند الجاحظ ، يجب أن نشير إلى أهم تعريفات اللسانيين في العصر الحديث، حتى تتبين تلك السمات المشتركة، بينها وبين فكرة الجاحظ تجاه اللغة، و لنبدأ بقول دوسوسير عن اللغة بأنها نظام من العلامات اللسانيات ، ونص العبارة الأصلي «Tout langue est un Système particulier de signes linguistiques» و، [5] و بقول أندري مارتيني (André martinet): " إن لغة ما ،هي أداة الاتصال وفق التجربة الإنسانية التي يختلف استعمالها في كل مجتمع"[6]، ويضيف العالم اللساني فندريس(1809/1893) (Joseph Vendryes) معرفا اللغة قائلا: "في أحضان المجتمع تكونت اللغة، وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم، فاللغة هي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى، تنتج من الاحتكاك الاجتماعي"[7].

إذا تصفح الباحث هذه التعريفات، يجدها عند "دوسوسير" تركز على الجانب العلاماتي للغة، وتلك العلامة يبدو أنها موجودة في المجتمع اللساني بالقوة، كما يجدها أيضا تركز في التعريفين الآخرين على عنصرهام، وهو اجتماعية اللغة، من حيث إنها تجربة إنسانية اجتماعية، تتولد عن الاحتكاك الاجتماعي، وهكذا فإن اللغة في كل صورها اجتماعية، مرتبطة بالحدث التواصلي في المجتمع، فلا لغة من دون مجتمع، ولامجتمع من دون لغة، " إن وجود اللغة يشترط وجود مجتمع، وهنا يتضح العنصر الاجتماعي للغة، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به، فاللغة ليست هدفا في ذاتها، وإنما هي وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الإنسانية"[8]، ومن ثم يمكن القول إن اللغة عند جل علماء اللسان البشري تتميز بخاصية ضرورية، تؤثر في تكوينها وتطورها ألا وهي الخاصية الاجتماعية.

عندما نقارن هذا المنظور الاجتماعي الحديث للغة بمنظورها القديم ، نجده لا يبعد على ما أثبته الجاحظ في مؤلفاته، إذ وضع اللغة في إطار التواصل الاجتماعي،حيث يصير لها في نظره وظيفتان، وظيفة اجتماعية، ووظيفة تواصلية، وهذه الوظيفة لا تستطيع الانفكاك عن الوظيفة الاجتماعية، لأن التواصل اللغوي إنما يكون في المجتمع، وهاتان الوظيفتان بنى عليهما الجاحظ نظرته إلى اللغة، عندما فسر مصطلح البيان

الذي أشار فيه إلى ثنائية الفهم والإفهام، بين السامع والقائل اللذين هما طرفا التواصل اللغوي الاجتماعي، ومن أجلهما كانت اللغة، ولتوضيح ذلك يقول الجاحظ : "البيان اسم جامع لكل شيئ، كشف قناع المعنى و هتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله ، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام ووأضحت المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[9]. بهذا القول فإن الجاحظ يضع مصطلح البيان مقترنا بعملية التواصل ووسائلها المتنوعة، وبأي أداة تواصلية يؤدي المتكلم (الباث) غرض مقصوده إلى السامع(المستقبل)، يكون الإفهام وهو إيصال المعنى المراد إبلاغه.

بهذه النظرة العميقة أدرك الجاحظ أن الوظيفة الاجتماعية للغةهي في المقام الأول، وهذه الوظيفة مرتبطة بالتواصل بين إفهام خاص بالباث وفهم مقصور على المتلقي، "ومعنى هذا أن مصطلح البيان عند الجاحظ ،هو مصطلح جامع (Terme Collectif)، يجمع كل طرق الاتصال ووسائل التبليغ في المجتمع" [10]، ويزيد الجاحظ اجتماعية اللغة توضيحا، وينقلها من معناها العام، المتمثل في التواصل بين المخاطبين في المجتمع، إلى معناها الخاص بالمتكلمين كالأفراد، وذلك بتحليله لأصناف الدلالات الموجودة بين أبناء المجتمع اللغوي، وتلك الدلا لات نابعة من هذا المجتمع، ومتواطؤ عليها من قبل أفراده، لذا يقول الجاحظ مبينا ذلك :"وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء، لاتنقص ولاتزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة"[11].

هذه الدلالات، يمكن أن توصف بأنها مستويات للغة التخاطب، الموجودة بالضرورة في المجتمع اللساني، فاللفظ هو اللغة المنطوقة والإشارة هي لغة العلامات (السيمياء)، والعقد لغة الحساب، والخط هو اللغة المكتوبة، والنصبة هي الدالة على لسان الحال دون لسان المقال، ومن خلال هذه الدلالات يتواصل المتكلمون في المجتمع، وبهذا يكون للغة وجهان، وجه تواصلي وآخر إجتماعي، وهما ضروريان لوجود المجتمعات الإنسانية، وهذا الرأي من قبل الجاحظ، دفع بعض اللسانيين يقولون "إن الإنسان لغة، ويلزم عن هذه المقولة، أن اللغة من كيان الإنسان، فلا إنسانية بدون لغة"[12]. من خلال هذا القول ، نستطبع القول بأن وجود الإنسانية معلق بوجود الغة، بل لو قيل إن كائنا ما لا يستطيع أن يحيا إلا باللغة، لكان هذا الإنسان.

من خلال هذا التحليل اللساني العميق الذي بلغه فكر الجاحظ، خاصة في المباحث التي تتعلق بماهية اللغة ووظفائها، فإنه يكون قد أشار إلى وجوب الاهتمام بدراسة اللغة في إطارها الاجتماعي، وكأنه يحث كل عالم في اللغة ، أن لايغفل هذا الفرع من الدراسة اللغوية الذي يتتبع تطور المظاهر اللسانية خلال التواصل اللغوي للمجتمع اللساني الواحد، ولاريب أن هذا النوع من البحوث اللسانية هو ماصار يعرف بعد عصر الجاحظ -لاسيما في العصر الحديث- بمصطلح اللسانيات الاجتماعية ، وإذا كانت هذه الوظائف اللغوية المتنوعة التي تدور في إطار التواصل الاجتماعي قد توصل إليها الجاحظ منذ العصر العباسي، فإننا نجد بعض اللسانيين المحدثين يتبناها ويدعو إلى ضرورة توجيه الدراسات إليها ، وذلك حين عرف اللسانيات الاجتماعية، وحدد وظيفتها بأنها: " تدرس اللغة باعتبارها تتحقق في المجتمع، أي أنها تدرس الظاهرة اللغوية حين يكون هناك تفاعل لغوي، أي لابد أن يكون هناك متكلم ومستمع أو متكلمون ومستمعون، وإذن لابد أن يكون هناك موقف لغوي، يحدث فيه الكلام، وتتوزع فيه الأدوار والوظائف وفق قواعد متعارف عليها داخل المجتمع"[13].وإذا تمعنا في هذا القول، فإننا نجده يلح على حقائق لسانية، تدور حول العناصر المفعلة للحدث اللساني ، وكلها مستنبطة من تلك العلاقات التي تكون بين أفراد المجتمع، باعتبارهم الأطراف الممثلة لظاهرة التواصل اللغوي، الذي مجاله بالدرجة الأولى المحيط الاجتماعي.

لعل هذه النظرة للغة من قبل الجاحظ، أيده فيها عالم لغوي جاء بعده، وهو ابن جني(ت 392هـ)، حين عرف اللغة بقوله: "أما حدها فإنها أصوات ، يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[14]، فقوله: "القوم" لفظ دال على المجتمع اللغوي الذي يتداول أفراده لسانا ما، ومن ثم فإن عدول ابن جني عن التعبير بلفظ فرد أو إنسان، إلى التعبير بكلمة "قوم" ، ليس إلا لتبيان غرض واحد وهو اجتماعية اللغة ، كما أن كلمة قوم، هي الكلمة التي كانت متداولة في عصره للدلالة على المجتمع ، يقول عبده الراجحي(1937-2010) "من الواضح أن كلمة القوم تعني المجتمع، وبخاصة أن لفظة المجتمع، لم تكن مستعملة في هذا المعنى الذي تعنيه الآن، وإنما كان العرب يستعملون "القوم"، للدلالة على المجتمع، كما نفهمه في العصر الحديث" [15] .

هذا المفهوم الاجتماعي للغة لدى ابن جني، نجد له سندا عند ابن خلدون حين عرف اللغة - وهوعالم من علماء القرن الثامن الهجري- مما يدل على أن اجتماعية اللغة يجمع عليها اللغويون باتفاق، وفي هذا يقول ابن خلدون عن اللغة: "هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهي في كل أمة، بحسب اصطلاحاتهم..."[16].

من خلال عبارة "وهي في كل أمة، بحسب اصطلاحاتهم" ، ندرك أن ابن خلدون لم يهمل اجتماعية اللغة، لا سيما أنه اعتمد على المنهج الاجتماعي في تفسير الظواهر اللغوية وغير اللغوية، وهذا تحليل يشترك فيه اللسانيون القدامى مع اللسانين المحدثين ،الذين يقررون أن اللغة لا تعدو أن تكون استجابة ضرورية للاتصال بين الناس، ومن أجل هذا كان الجاحظ يدرس اللغة مرتبطة بالمجتمع، وامتدت هذه الفكرة إلى اللسانيات الحديثة التي أدى تلاحمها مع علم الاجتماع، إلى

توليد علم يعرف بعلم الاجتماع اللغوي ،الذي يحاول الكشف عن العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبين أثر تلك الحياة الاجتماعية في الظواهر اللغوية المختلفة" [17] ، ومن هذا القول ندرك أن دراسة اللغويين القدامى للغة لم تكن إلا وهي مقترنة بالبيئة التي أنتجتها،حيث إنهم أدركوا أن الدراسة النظرية للغة ناقصة من حيث النتائج، إن لم تكن معززة بالجانب التطبيقي والميداني.

إن الجاحظ على بعد العهد بينه وبين نظرية اللغة الحديثة، نجده قد قال بهذه الخاصية اللغوية التي أجمع عليها كل الباحثين اللسانيين، ومن أمثلة ذلك ما قاله "مالينوفسكي "(1942/1884)(Malinowski) حول وظيفة اللغة : "إن وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتافهم أو التواصل، بل وظيفة اللغة هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، هي جزء من السلوك الانساني، إنها ضرب من عمل، وليست أداة عاكسة للفكر، واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصرا على الجماعات البدائية، بل إنه ليلاحظ في أرقى الجماعات تحدث ا" [18] ، وبما أن اللغة حاضرة في كل مجتمع لساني، فلا بد لها من مظاهر تطبيقية إجرائية، تتمظهر في العلاقة التواصلية التي يظهر فيها الاستعمال اللغوي، وهذا الاستعمال هو موضوع اللسانيات الاجتماعية، كما ذهب إلى ذلك "فيشمان" (2015/1926)(Fish man) الذي يعرفها بأنها: "علم يبحث في التفاعل بين جانبي السلوك الانساني، استعمال اللغة والتنظيم الاجتماعي للسلوك" [19] ، وهذا الرأي يضع اللغة مع اللسانيات الاجتماعية في مجال واحد ، حيث يمكن القول :إن اللغة سلوك اجتماعي، وعلم اللغة الاجتماعي أواللسانيات الاجتماعية ، ما هي إلا معيارعلمي يدرس به هذا السلوك.

2ـ اللسانيات الاجتماعية وتطبيقاتها في فكر الجاحظ

حين نريد أن نلمس حقيقة اللسانيات الاجتماعية من الناحية التطبيقية للغة، نجدها تبحث في دراسة الأنماط اللغوية المنتشرة، والبارزة في المجتمع اللساني الواحد، كما نلمسها في تلك القوانين الاجتماعية التي تحكمها، فهي " تحاول تحديد الهيمنة اللغوية لنمط لغوي على آخر، كما تحاول اكتشاف القوانين أو المعايير الاجتماعية التي تحدد المواقف اللسانية ، ضمن الجماعة اللغوية"[20]، وتلك القوانين الاجتماعية تمثل الضوابط التي يستعين بها عالم اللغة في استقراء الثوابت والمتغيرات داخل اللغة ووفق متطلبات الفئة الاجتماعية .

لأجل هذا ، تدخل القوانين و المعايير الاجنماعية ضمن المؤثرات التي تتأثر بها اللغة في جانبها التطبيقي ، أما دراسة اللغة دون هذه المؤثرات، فيمكن تصنيفه في الجانب النظري، فالأول يوجب على الباحث الاحتكاك بالعينة الاجتماعية المراد دراسة مادتها،أما الثاني فهو دراسة المادة اللغوية دراسة وصفية ، وأمام هذه الحقيقة اللسانية ، فإن الجاحظ لم يكن بمعزل عن علاقة اللغة بمظهرها التطبيقي في المجتمع ، وهذا المظهر التطبيقي يمكن إيجازه في العناصر الآتية :

أ ـ الحدث الكلامي في المجتمع (l'évènement Verbal)

إن كثرة اختلاف الجاحظ إلى العلماء، واختلاطه بطبقات المجتمع العباسي بمختلف شرائحه، واطلاعه على الميادين الثقافية والدينية، مع طول الخبرة بشؤون عصره، كون لديه نظرة علمية حول لغة الفئات الاجتماعية المتعددة ، بدليل أن له كتبا ورسائل تصور أحوال هذه الفئات، و أساليبهم في الكلام منها كتاب "البخلاء"، كتاب "القحطانية والعدنانية"، كتاب "المعلمين" ، كتاب"الجواري"، كتاب "العرب والموالي"... إلخ ، وهذا العدد من المؤلفات الذي هو على سبيل التمثيل لا الحصر، لبرهان قوي على أن الجاحظ وعى العلاقة بين هذه الطبقات الاجتماعية وبنيتها اللغوية، إذ كان يحكي كلامهم كما صدر منهم، حتى ولوكان فيه خطأ أو لحن، وهو ما يصطلح عليه في اللسانيات، بالحدث الكلامي الذي يعني باللغة الإنجليزية (Speech Event)، وليس هذا جهلا منه بمواطن الصواب والخطأ في الكلام، وإنما قصدا منه في إيراد الكلام، وفق ما تقتضيه القواعد التي تنادي بها اللسانيات الاجتماعية، التي ترى رواية العبارة وفق ما صدرعن المتكلم دون تبديل أوتصرف، وفي ذلك يقول محاكيا ما قاله شيخه إبراهيم بن سيار النظام(160هـ و185 هـ)، حين خاطب كلبا هجم عليه: "إن كنت سبع، فاذهب مع السباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم" [21].

نلاحظ أن الجاحظ أورد اللحن في كلمة "سبع" كما هو دون إعرابه، إذ أنه لا يجوز له التصرف فيه بتعديله بالتنوين على أنه خبر كان منصوب ، وذلك حتى يسجل الظاهرة اللغوية كما وردت في الواقع الاجتماعي ، لذا يخاطب القارئ قائلا حين يروي هذه العبارة : "ولاتنكر علي قولي وحكايتي عنه، بقول ملحون من قولي: "وإن كنت سبع، "ولم أقل سبعا" "[22].

من خلال هذاه العبارة التي تبين طريقة الجاحظ الخاصة في حكاية كلام غيره ، يظهر أن الجاحظ يتفق مع منهج اللسانيات الاجتماعية الذي يرى ضرورة المحافظة على مانطق به المتكلم، ويعتني بالمتكلم واللغة التي يستعملها، والمتكلم إليه، وزمن التكلم، وما ينتهي إليه الكلام، ومن هنا يتقيد الجاحظ بأمانة نقل العبارة، وفق عادة المتكلم اللغوية في إنشائه وتركيبه للكلام.

ب ـ التغير اللغوي الاجتماعي

تنبه الجاحظ من خلال تحليله للاختلافات اللهجية الطارئة على لسان مجتمعه، إلى حقيقة تؤمن بها اللسانيات الاجتماعية الحديثة ويراعيها علماؤها، وهي التطور اللغوي (Développement du langage) الذي تتحكم فيه دواع تاريخية تعاقبية، لها علاقة بالمجتمع وظروفه الداخلية، مما يؤدي إلى ظهور تعبيرات تمثل الواقع الجديد، وتساير مرونته اللغوية، " ذلك لأن اللغة في تراكمها التاريخي، في تطوراتها المتعاقبة، في ميلها لأسلوب معين للتعبيرعن الجماليات اللفظية، إنما تعكس واقع ذلك المجتمع وخصائصه الذاتية" [23]،

ومن بين أسباب تغير وتطور لغة المجتمع، التعبيرعن حاجاته، يقول الجاحظ " كثر كلام الناس، واختلفت صور ألفاظهم، ومخارج كلامهم، ومقادير أصواتهم في اللين والشدة، وفي المد والقطع، كثرة حاجاتهم، ولكثرة حاجاتهم، كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم" [24]، إن هذا الرأي يفتح مجالا لتنظير لساني يعرض لنا فيه الجاحظ نماذج تطبيقية، من التغير اللغوي الطارئ على استعمالات اللغة في المجتمع العباسي ، ذلك المجتمع الذي استحدث فيه الناس ألفاظا، ذات دلالات مناسبة للواقع الاجتماعي آنذاك، وفي هذا السياق يقول الجاحظ في إحدى قصص البخلاء: " إذا مد أحدكم يده إلى الماء فاستسقى، وقد أتيتم ببهطة (دقيق يطبخ بالسمن واللبن) أو بجوذابة (طعام من الأرز واللحم) ... قال: وأتانا بأرزة، فنثروا عليها لبكة (قطعة من ثريد) ..." [25]، يتبين من هذا النص، أن التغير اللغوي من الخصائص الضرورية للغة، لايمكن إغفاله، لأن " اللغة ليست ساكنة بحال من الأحوال، بالرغم من أن تقدمها يبدو بطيئا في بعض الأحايين، فالأصوات و التراكيب وصيغ الكلمات ومعانيها، معرضة كلها للتغيير والتطور"[26].

ج ـ الطبقات اللغوية (الخاصة والعامة)

تلتقي أبحاث الجاحظ في هذا الباب، ببحوث علماء اللسانيات الاجتماعية ودرساتهم لطبقات المجتمع (Les classes sociales)، ويقصدون بذلك طبقات الناس من حيث استعمال اللغة الواحدة، جودة ورداءة، وقوة وضعفا، وبما أن الجاحظ فقه هذه الحقيقة، فإنه يؤكدها قائلا: "وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم طبقات"[27]، وهذه الرؤية العميقة للغة – من قبل الجاحظ–، تحتاج إلى مزيد من البسط والتفصيل، ومن أجل توضيح فكرته هذه، أنزلها إلى الميدان التطبيقي، فرصد لنا أربع طبقات للغة ومستعمليها، وهي:

أ ـ لغة الكتاب العزير

عربية القرآن ،هي أعلى مستويات البيان الذي شعر العرب قديما أنه الغاية التي يتنافسون من أجل الوصول إليها، فلما سمعوا القرآن وجدوا أنه يمثل هذه الغاية التي يحاولون بلوغها، وفي هذا يقول الجاحظ عن القرآن ولغته الإعجازية: " قد خالف جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى، على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان، وتأليفه من أكبر الحجج "[28]، وبهذا القول ، شرع الجاحظ يصنف مراتب الكلام ، مبتدئا من أعلى درجة النظم المعجز، إلى ما هو دونه من مستويات الكلام .

ب – لغة طبقة الأعراب

يعتبر الجاحظ بنظرته السوسيولوجية للغة الأعراب،أن أهلها أحسن الناس إجادة للاستعمال اللغوي، بمختلف مستوياته الصوتية، والدلالية والتركيبية، وإنما صار الجاحظ إلى هذه النتيجة، بالاحتكام إلى البيئة والمكان الجغرافي الذي لم تختلط ألسنة أفراده بلكنة الأعاجم، وهذا المكان المساعد على جودة لغة الأعراب،هو بيئة شبه الجزيرة العربية، وقد علل ذلك قائلا: "لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت، واطردت وتكاملت، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة " [29]، بعد ذلك ينفي الجاحظ عن لغة هذه الطبقة، السلبيات القادحة في جماليات التعبير لديهم، ويثبت الإيجابيات الدالة على علو بيانهم، وفي ذلك يقول منزها لغتهم عن كل نقص : "ولم أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح ، ألفاظا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولاطبعا رديئا، ولاقولا مستكرها، وأكثرمانجد ذلك في خطب المولدين، وفي خطب البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين، سواء كان منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أومن نتاج التحبير والتفكير"[30]، ومن هذا القول ندرك أن الجاحظ لايعدل بكلام الأعراب ومن شابههم في الأساليب أي طبقة أخرى ، أما الخصائص التي ترفع لغتهم إلى رتبة أهل الفصاحة والبيان، وإلى رتبة أعلى الطبقات اللغوية، فيقول: " وأنا أقول، ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق، ولا ألذ في الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولاأفتق للسان، ولا أجود تقويما للسان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء"[31]، ولعل في هذا القول ما يؤكد أن لغة البدو من أهل شبه الجزيرة العربية، كانت في عصر الجاحظ هي النموذج الذي يمثل اللغة الرفيعة و البيان العالي، الذي يجب أن يحتذى من قبل المتأدبين والمنشئين للكلام المنظوم أو المنثور، ولأجل هذا كانوا يحبون سماعه، ويسارعون إلى مشافهة أصحابه ، وربما شد له علماء اللغة الرحال ابتغاء جمعه و تدوينه.

ج- لغة الطبقة العالمة

يثبت الجاحظ لغة هذه الطبقة، قاصدا بها طبقة أرباب القلم وأصحاب البيان، أو مايسمون عادة بالطبقة العالمة، وهم عنده طبقة مجزأة إلى طبقات عديدة ومتنوعة، هي:

– طبقة الشعراء والكتاب وطبقة الفقهاء والخطباء ومن استن بسننهم، فهؤلاء لهم لغتهم، المتفردة بخصائص مميزة، وفي هذا يقول موضحا لغة هذه الطبقة : " ولكل قوم ألفاظ ، حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ في الأرض، وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض ، وصاحب كلام موزون ، فلابد أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها ، ليد يرها في كلامه"[32]، ومن هنا بتضح أن الجاحظ كان خبيرا بأسرار إنشاء الكلام، وأساليب البلغاء في بناء أساليبهم ، وأن لكل واحد منهم طرائق معينة في حبك الكلام ، ومن ثم فإنه تمكن من إدراك هذه الخبايا الدقيقة، في معرفة صيغ الفصحاء في تشكيل الجمل واختيار الألفاظ، فلا شك أن له باعا طويلا، و دارية بكلام الفصحاء ، كل ذلك لم يكن ليحيط به علما، لولا كثرة احتكاكه بمختلف الشرائح الاجتماعية التي كانت سائدة في بيئته وعصره.

د- لغة طبقة المعتزلة

يعد الجاحظ لغتهم متميزة، لكونها مرتبطة بأفكار عقدية وكلامية، ولا يضع لغتهم في مستوى واحد، بل يعتبر لغتهم ذات مستويين، مستوى يتعلق بصفوة رجالات المعتزلة وعلمائهم، كإبراهيم بن سيار النظام شيخ الجاحظ وغيره، ومستوى خاص بعوام هذه الفرقة، حيث يصنف لغة الفريقين فوق لغة سائرعوام المجتمع، و في نظر الجاحظ أنهم لا يتكلمون بأي كلام، بل كلامهم في غاية الفصاحة من حيث جودة التركيب، وعمق المعنى، لأن لهم ذوقا لغويا، وحسا أدبيا يميزون به بين جيد الكلام ورديئه، وفي هذا يقول: "...وأشكالا من هذا الكلام، وإن كان غريبا مرفوضا من أهل ملتنا ودعوتنا، وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخواص والمتكلمون"[33] ، وفي هذا تعليل من قبل الجاحظ في حكمه على لغة هذه الفرقة، وإصداره في حقها هذه الأحكام ، إذ بين أن لهم استعمالات لغوية خالصة لهم من دون الناس، بسبب أن لهم معرفة واسعة بعلم الكلام،هذا العلم الذي مكنهم من التفنن في صياغة الأساليب، وتطعيمها بآرائهم الفكرية،ولعل هذه الأحكام ليس اعتباطية بعيدة عن كل تعليل ، بل هي مبنية على علم راسخ بكل ما يتعلق بثقافة هذه الطبقة ، لا سيما أن الجاحظ كان ينتمي إليها ، وكانت له فرقة معتزلية عرفت بالجاحظية.

هـ – لغة طبقة العوام

لغة طبقة العوام عند الجاحظ موجودة ، لكنه لا يعتبرها جديرة بالذكر، لكونه لا يضع اعتبارا ، إلا لأربعة أنواع من عوام الأجناس البشرية التي تستحق ألسنتها الدراسة ، وهي العرب والفرس والهند والروم ، وفي الوقت نفسه يضع كل هذه الطبقات، دون طبقة عوام المعتزلة قائلا: "وإذا سمعتموني أذكر العوام، فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعني الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم البيروالطليان، ومثل قوقان وجيلان، ومثل الزنج وأشباه الزنج ، وإنما الأمم المذكورة مع جميع الناس أربع، العرب وفارس والهند والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج ، وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي فوق الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ،على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا"[34]، وعند إمعان الفكر في هذا القول، يتبين أن للجاحظ مفاهيم ومصطلحات ينفرد بها عن سائر علماء اللغة، فمصطلح العوام عنده له دلالة خاصة،إذ لا يقصد به جميع فئات الناس، كما هو سائد عند غيره، بل هو مقصور على فئة معينة،هي فئةعوام المعتزلة وبعض الطوائف الأخرى، ولعل السبب الذي جعل الجاحظ يصدر هذا الحكم،هو أنه ينظر إلى طبقات المجتمع بمنظور لساني، حيث يكون الاعتبار للطبقة التي لها حظ من البيان الرفيع أومن اللغة الراقية، والتي يكون كلامها جديرا بالاعتناء وحقيقا بالدراسة والتأمل،أما بقية الفئات الاجتماعية الأخرى ، فليست حرية بأن يهتم الجاحظ بها، لأن كلامها لايملك من الخصائص الأسلوبية، مايؤهله لأن يكون محط نظره ، ومن ثم فإنه يضرب عنه صفحا ولا يقيم له وزنا.

و- لغة طبقة الفرق والطوائف

أولى الجاحظ اهتماما في دراسته للغة السائدة في المجتمع العباسي الذي ظهرت فيه فرق اجتماعية، شكلت لنفسها طبقات متباينة، ومن ثم تنوعت أساليبها في التعبيرعن حاجاتها، فأفرزت لغة خاصة بها، ومن ذلك طائفة البخلاء الذين وصفهم بالمسجديين، و في ذلك يقول عنهم: " قال أصحابنا من المسجديين: اجتمع ناس في المسجد، من أصحاب الجمع والمنع..." [35] ومن ذلك أيضا طائفة اللصوص والشطار الذين أفرد لهم كتابا خاصا، يبدو أنه ضاع مع صروف الزمن ونكبات الدهر، وقد أشار إليه بقوله في مقدمة كتاب "البخلاء" : "ذكرت -حفظك الله- أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وتفصيل حيل سراق الليل، وأنك سددت به كل خلل وحصنت به كل عورة..."[36]، واهتمام الجاحظ بلغةهذه الطبقة دون غيرها، يدل على أنه يخالطهم ويجلس إليهم، بدليل أنه أورد عبارة " أصحابنا من المسجديين "، أما الثلة الأخرى من المجتمع والتي عرفت عنده بالشطار واللصوص، فإنه كان يتلقف أخبارهم من الرواة ، كما أن حرص الجاحظ على إيراد أحاديث طبقة البخلاء، إنما ينطلق من منهجه اللغوي الذي يتتبع كل طبقة اجتماعية، لها لغة حري بها أن تكون موضع اهتمام من قبل الباحث اللغوي، إضافة إلى أن انتقال الجاحظ من لغة طبقة إلى لغة طبقة أخرى، يدل على وقوفه على حقيقة لسانية ، هي انتقال دلالات اللغة من حال إلى حال ، وفي هذا دليل على أن اللغة عنده يعتريها التغير من طبقة إلى أخرى، وهذا التطور الدلالي استجابة لخدمة مصالح تلك الفئة الاجتماعية التي تمارسها، و باعتبار اللغة أيضا " أداة اتصال تتكيف مع حاجات أولئك الذين يستعملونها" [37] ، وهذه حقيقة لسانية أخرى، وهي أن اللغة في عمومها تتميز بالحركة و عدم الاستقرار، وفي الوقت نفسه تبتعد عن السكون والثبوت الدائم.

ومن أمثلة هذا النوع من الاستعمال اللغوي،أن الجاحظ سأل بائع شراب عن وصف معركة، فأخبره مستعملا ألفاظا من صميم مهنته، قال: " لقيناهم في مقدار صحن بيت الشراب، فما كان يقدرمايصفي الرجل، دنا حتى تركناهم في أضيق من رطبلة(وعاء يسع رطلا من الشراب)، فلو رميت تفاحة ماوقعت إلا على أنف سكران"[38]، ومن هذه القصة التي يستدل بها الجاحظ، يمكن القول إن كل طبقة تستعمل لغتها الخاصة وفق مااعتادت عليه من عادات أومهن اجتماعية، واعتيادها على ألفاظ وتراكيب مخصوصة، تنم على أن اللغة مرتبطة بالمجتمع، وأن هذا الارتباط يقترن في الغالب بحاجات الفئة الاجتماعية، وأن الحاجة الاجتماعية عامل من عوامل التطور اللغوي، لاسيما الدلالي منه، سواء أكانت دلالة لألفاظ رفيعة،

متعلقة بلغة أهل البيان، أم دلالة لها صلة بألفاظ وضيعة، ملازمة للغة السوقة والعوام.

3 ـ اللهجات وعلاقتها بلغة المجتمع

لغة المجتمع الرسمية في عصر ومجتمع الجاحظ هي العربية الفصحى، وهي المرجع الذي يؤول إليه الباحث اللغوي عند الاحتكام إلى الدليل، وأما مااصطلح عليه في سوسيولوجية اللغة، باللغة الفصحى (Langue Standard)، فإن الباحث يجد أن الجاحظ عن طريق الاستقراء الاجتماعي للغة،استنتج أن هذه اللغة، وإن كانت هي النمدوذج الذي يحتذى به في الاستعمال، قد يعتريها بعض الدخيل اللغوي واللهجي من خارجها، ولتوضيح هذا الجانب يصرح الجاحظ موضحا هذه الحقيقة: " إن أهل الأمصار يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك تجد الاختلاف، في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر"[39].

من خلال هذا القول، يمكن القول إن الجاحظ يدرك أن الاختلاف في الألفاظ يولد لهجات، لذا يدرسها دراسة ميدانية ويتتبع الألفاظ المتداولة بين المتكلمين، فيلاحظ أن هناك تباينا بينهما، مما يضطره إلى تقسيم اللهجات إلى قسمين، لهجات إقليمية ولهجات اجتماعية.

أ ـ اللهجات الإقليمية: (Dialectes Régionaux)

أقام الجاحظ حولها دراسة شاملة عامة، حيث رصد اللهجات العربية في إقليمها الكبير، وهو شبه الجزيرة العربية، وأشار إلى حيزها الجغرافي الذي تنتشر فيه، موضحا بعض سماتها الصوتية أو الجانب الفونيتيكي منها (Phonétique)، ومن أقواله في ذلك، مأورده عن بعض اللهجات المحلية قائلا : "ويقال دجاجة بيوض في دجاج بيض وبيض، بإسكان موضع العين من الفعل، من لغة سفلى مضر، وضم موضع العين من نظيره من الفعل مع الفاء، من لغة أهل الحجاز"[40]، وبهذا فالجاحظ يدرك أن التغير اللهجي من الناحية الصوتية، لا سيما النطقية منه، يخضع أيضا في معظم الأحيان للبيئة الطبيعية وملابساتها الجغرافية والاجتماعية.

ب ـ اللهجات الاجتماعية: (Dialectes Sociaux)

هذا النوع من اللهجات هو الذي استحوذ على معظم الدراسات السوسيولوجية للغة لدى الجاحظ ، فقد درس لهجة الأعاجم الناطقين بالعربية، ولهجة المولدين، ولهجات اجتماعية أخرى، مما يؤكد نظرة الجاحظ العميقة للغة، إذ يتناص موقفه هذا مع اللسانيات الاجتماعية، باعتبارها ذلك " العلم الذي يتخذ من اللغة موضوعا له، واللغة التي يدرسها إنما هي تتحقق في أشكال لغات كثيرة، ولهجات متعددة، وصور مختلفة من صور الكلام الإنساني"[41]، هذا القول ينص على أن اللغة لا يمكن أن تدرس و تحلل إلا في مناخها الذي تكونت وتطورت فيه، كما أنه ينص على أن من رام تحليل المسائل اللغوية في أي لغة، وعبر مستوياتها المختلفة، فيجب عليه مراعاة لهجات تلك اللغة، لأن اللهجات ماهي إلا مظهر من المظاهر اللسانية التي تتجسد فيه أي لغة من اللغات الإنسانية، لاسيما أن اللسانيات المعاصرة أضحت تلح على التوجه بالبحوث، إلى اللهجات الموجودة في مجتمعاتها، باعتبارها من مكونات التركيبة الاجتماعية لذلك المجتمع.

ـ لهجة الأعاجم

هي أول لهجة اجتماعية،لاحظها الجاحظ بوضوح في ذلك المجتمع الذي اختلط فيه العرب الخلص مع الأعاجم بشكل كبير، وهذا الاختلاط العربي بالجنس الأعجمي، ولد لهجة مزدوجة من اللغة الفصحى والمفردات الأعجمية، ومن ذلك مارواه الجاحظ عن قصص أحد تجارالدواب مع الحجاج بن يوسف الذي قال له " أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان، قال التاجر: وشركتنا في هوازها، وشريكاتنا من مداينها، وكما تجيئ نكون، فقال له الحجاج: ما تقول: ويلك، فقال له بعض من كان اعتاد سماع الخطأ، وكلام الأعاجم بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك، يقول: "شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجهها"[42].

ـ لهجة المولدين

انتبه الجاحظ إلى أن المولدين في عصره، كانت لهم لهجة ينمازون بها في المجتمع، متأثرين في ذلك بالأعاجم، لاسيما على المستوى الصوتي (الفونيتيكي)، وربما كان من هؤلاء المولدين بعض الشعراء الذين لهم شعر جيد المعاني رقيق الألفاظ،أحرز ثناء كبيرا من اللغويين، وكان الجاحظ أحد أولئك الذين أثنوا عليه، ومع ذلك تسربت إلى شعرهم لكنة الفرس والأحباش، فصاروا ينطقون حروف العربية بغير مخارجها، دون مراعاة المخارج التي اعتادتهاالعرب بسليقتها، ومن ذلك مارواه الجاحظ: " أن الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس الذي كان تؤثر فيه الحبشية، أنشد عمر بن الخطاب قائلا:

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَازِيًا كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا

فقال عمر: لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك، فقال ماسعرت"[43]، فهذا الشاعرعلى علو كعبه في الصياغة اللغوية، إلا أنه أخفق في إخراج بعض الحروف من مخارجها، وذلك أنه نطق الشين سينا، وقد ساق الجاحظ عن كلام المولدين نماذج كثيرة، في كتاب "البيان والتبيين"، حيث عرف كيف يحللها بمراعاة أصل المتكلم وسلالته البشرية، وهذا جانب من جوانب سوسيولوجية اللغة في الدراسات الحديثة التي " تأخذ بعين الاعتبار حالة المتكلم، كمعطى اجتماعي من حيث أصله السلالي ووظيفته الاجتماعية، ومستواه المعيشي الثقافي، وربط هذه الحالة بنوع اللغة التي يستعملها، انطلاقا من مجموع القواعد التي تضبطها ، لأنها دائما تحدد في زمان ومكان، وبيئة اجتماعية معينة"[44]، ومن هنا نعلم أن هناك معطيات، تؤثر كلها في التكوين اللغوي لدى الشخص، وتلك المعطيات تتمثل في استعدادات وراثية، تعود إلى سلالته البشرية، أوعمل أو

مهنة تعكس حالته الاجتماعية، ومهما تنوعت العوامل المؤثرة في تكوين لهجة أوأخرى ، فإن الجاحظ يرد سبب ظهورهذه اللهجات على ألسنة الأعاجم والمولدين، إلى أن هناك تداخلا لغويا بين اللغة الأم واللغة الثانية، مما يسبب تغيرا صوتيا، وفي ذلك يقول: " واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد، أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها"[45].

هذه الأحكام اللسانية التي توصل إليها الجاحظ ، يمكن أن نعتبرها أحكاما بناها على دراسة سوسيولوجية للاستعمال اللغوي، ورصد التغيرات اللهجية المتعددة، وربطها بأجناسها البشرية، ومن ثم فإنه نظر إلى اللهجات نظرة علمية، إذهي عنده " نمط من الاستخدام اللغوي داخل اللغة الواحدة، وتشترك معها في جملة من الخصائص العامة" [46].

صفوة القول، إن الجاحظ أقام دراسته السوسيولوجية للغة على فكرة، مفادها أن التحليل اللغوي لا يكون حكرا على لغة ما، بل يتعداها إلى لغات ولهجات أخرى، وإذا كانت دراسته في كتاب "البيان والتبيين" أو غيره من الكتب، لم يرد فيها المصطلحات الحديثة المتداولة في الدراسات السوسيولوجية الحديثة للغة، فإن ذلك يعود إلى أنه كان هو وأمثاله من علماء التراث، يدركون أن أي دراسة للغة مهما كان منهجها وغايتها، فإنه لاينبغي لها أن تهمل الجانب السوسيولوجي (الاجتماعي) للغة، وهذا المنهج يقترب مما ذهب إليه بعض اللسانيين في عصرنا، إذ يرى " أنه يمكن الاكتفاء بالمصطلح العام المشهور، علم اللغة أو علم اللغة العام دون نعته بالاجتماعي، على أن يتولى مسؤولية النظرة الاجتماعية للغة في كل مرحلة"[47].

خاتمة

من خلال ما ورد في هذا البحث، يمكن استنتاج النتائج الآتية:

1- التفكير اللساني لدى الجاحظ ، قد حمل منذ وقت مبكر الأصول الأولى التي تتفق غالبا مع ما يسمى حديثا سوسيولوجية اللغة، حيث إن ماأقره الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" وسائر مؤلفاته، قد أشارإليه علم اللغة الاجتماعي الحديث.

2- أفكار الجاحظ اللسانية في كتاب "البيان والتبيين"، تحمل حقائق لسانية تكني عن مصطلحات تنتمي إلى الدراسة السوسيولوجية الحديثة للغة، مما يجعل أي باحث يذهب إلى أن الجاحظ لم يفتقر إلى الفكرة العميقة، بقدر ما كان يفتقر إلى المصطلح.

3- يتبين من خلال دراسة الجاحظ السوسيولوجية للغة،أن اللغة تؤثرعلى الفرد، حيث يرى الحياة الاجتماعية من زاوية هذه اللغة، كما أن اللغة تؤثر في المجتمع، والمجتمع بدوره يؤثر فيها، بدليل أن ألفاظا وتراكيب طرأ عليها التغيير في الجانب الصوتي والتركيبي لعوامل اجتماعية، مما يفسر ظهورعبارات قديمة وأخرى جديدة.

4- الضرورة الاجتماعية عند الجاحظ تفرض على اللغة كلمات دخيلة، أو تغيرات صوتية، ومن ثم فاللغة لاتبقى على حالها، إذ يعتريها التطور الصوتي الذي ينتج عنه تطور دلالي.

5- اللغة لها ارتباط وثيق باللهجات، مما دفع الجاحظ إلى الاهتمام باللهجات داخل المجتمع، وتلك سمة يتناص فيها التفكير اللساني لدى الجاحظ مع اللسانيات الاجتماعية الحديثة، التي تهتم باللهجات وعلاقتها مع اللغة الأصلية، لأنه ربما صارت هذه اللهجات بعد مدد طويلة من الزمن لغات رسمية، كما حدث للغات الأوروبية التي انبثقت من اللاتينية، ثم انفصلت عنها لعوامل عديدة ، في مقدمتها العوامل الاجتماعية.

6- الدراسة السوسيولوجية للغة، ميدان من ميادين البحث في إطار اللسانيات الاجتماعية، وأن أي دراسة لسانية للغة تقصي العامل الاجتماعي، فإنها دراسة لا تسلم من نقائص، لأنها لم تراع عاملا أساسيا يعتبرأحد مقومات اللغة، ألا وهو العامل الاجتماعي، وهذا العامل عرفه الجاحظ ومارسه في بحوثه اللسانية منذ أمد بعيد.

7- البحث اللساني إذا ارتبط بتحليل المؤثرات الاجتماعية في اللغة، فلا ريب أنه يكون بحثا ذا نتائج ملموسة، تقترب كثيرا من الدقة الموضوعية، وسبب ذلك أنه احتكم إلى الدراسة الميدانية المدعمة بأمثلة وشواهد لغوية مستمدة من الواقع اللغوي الاجتماعي ، لذا اتسمت دراسة الجاحظ اللغوية بالطرح العلمي المنطقي والموضوعي.

8- يمكن القول إن بحث الجاحظ في موضوع اللهجات المحلية في عصره، وتحليله للتفاوت اللغوي بين طبقات المجتمع، يعتبرمن البحوث التي تطلع الباحث اللساني على التباين اللغوي واللهجي، في فترة محددة من العصر العباسي ، ومن ثم يمكن استثماره في الدراسة التاريخية التي تبحث في دراسة الظواهر اللغوية خلال أزمنة تاريخية متعاقبة، وبذلك يستطيع أي باحث الوقوف على أهم التطورات الطارئة على اللغة في عصر الجاحظ، ويوازن بينها وبين غيرهامن التطورات التي شهدتها اللغة في العصور اللاحقة.

الهوامش

1- القاضي عبد الجبار، فرق وطبقات المعتزلة ، تحقيق علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية، مصر، دط ، 1972، ص74.

2 - André Martinet, Elément de linguistique générale 5 ème édition Mehedi Tizi Ouzou , 2013, p31

3-معجم اللسانيات، نقلا عن مبادئ اللسانيات، لأحمد نحنود قدور،دارالفكر،دمشق،دط ،1999، ص11.

4- حلمي خليل، في اللسانيات التطبيقية ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ط1،.2016، ص156.

5- F. De Saussure, cours de linguistique général, cd, T, maire, Payot, 1995, p 25

6- André Martinet, Elément de linguistique générale, p34/44

7- فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مطبعة نخبة البيان العربي، القاهرة، دط، 1950، ص35، دت، ص16.

8- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، المجالات والاتجاهات ، دار قباء للطباعة و النشروالتوزيع ،القاهرة، دط ،

9- الجاحظ ، البيان والتبيين، مطبعة التأليف، مصر، ط 3، 1968، ج1، 76.

10- حلمي خليل، في اللسانيات التطبيقية ، ص159

11- الجاحظ ، البيان والتبيين، مصدرسابق، ص76.

12- محمد عبد العزيز الجبالي ، تأملات في اللغو واللغة دار الكتاب العربي، ليبيا، دط ، 1980، ص110.

13- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، مصر، دط ، 1997، ص125.

14- ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب، القاهرة، ط1، 1965، ج، 33

15-عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1979، ص71.

16- ابن خلدون،المقدمة، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت، دط ، دت، ص546.

17- عبد السلام المسدي، اللسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية ،ط1، 1984، ص172.

18- محمود السعران،اللغة والمجتمع، دار المعارف ، مصر، دط ، 1992، ص17/16.

19- Joshua Aaron Fishman , the Sociology of language .IN. Society Rowley New buvy House, 1972, p1.

20- علي صبري الفرغلي، الهوية العربية وازدواجية اللغة في عصر المعلومات، مجلة الفكر العربي، العدد96، معهد الإنماء العربي، دط ، بيروت، 1999، ص 157.

21- الجاحظ ، كتاب الحيوان،تحقيق عبد السلام هارون،مطبعة نابي الحلبي،مصر،ط2، ج1، ص283.

22- المصدر نفسه، ص283.

23- حامد ربيع، حول تحليل العلاقة الاتصالية بين المفهوم القومي للوجود السياسي والتطور الاجتماعي نحو التماسك العقائدي، مجلة المستقبل العربي، عدد59، يناير، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت، 1984، ص91.

24- الجاحظ ، كتاب الحيوان، مصدرسابق، ص22/21.

25- الجاحظ ،البخلاء، دار بيروت للطباعة والنشر، دط ، بيروت، 1980، ص182/181.

26- محمد علي عبد الكريم الرويني ،فصول في علم اللغة العام ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط ، 2009، ص222.

27- الجاحظ ، البيان والتبيين ،مصدر سابق، ج1، ص144.

28- المصدر نفسه ، ج1، ص383.

29- المصدر نفسه، ج1، 163

30- المصدر نفسه، ج2، ص 9/8.

31- المصدر نفسه، ج1، ص145

32- الجاحظ ،كتاب الحيوان، مصدر سابق،ج2، ص108/105.

33- المصدر نفسه، ج2، ص108/105.

34- الجاحظ ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج1، ص137.

35- البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ط 5، دت، ص47.

36- المصدر نفسه، ص01.

37- Garmadi Juliette La Sociolinguistique, Presses Universitaires de France, paris , 1er édition1981, p2

38-الجاحظ، الرسائل، رسالة صناعة القواد، مكتبة الخانجي،القاهرة،دط، 1964، ص37.

39- البيان والتبيين،مصدر سابق،ج1 ،ص18.

40- الجاحظ ، كتاب الحيوان، مصدر سابق، ج 2، ص343

41- محمود السعران،علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دارالمعارف القاهرة، دط ، 1963، ص52/51.

42- الجاحظ ،البيان والتبيين،مصدر سابق، ج1، ص162/161.

43- المصدرنفسه،ج1، ص72/71.

44- عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دارالمعرفة الجامعية، 1996، ص 24 .

45- الجاحظ ، البيان والتبيين، مصدر سابق ،ج1، ص368.

46- محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دارغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،2001، ص64.

47-كمال بشر، علم اللغة الاجتماعية، دار غريب للطباعة والنشروالتوزيع، القاهرة،1997 ،ص67/66.